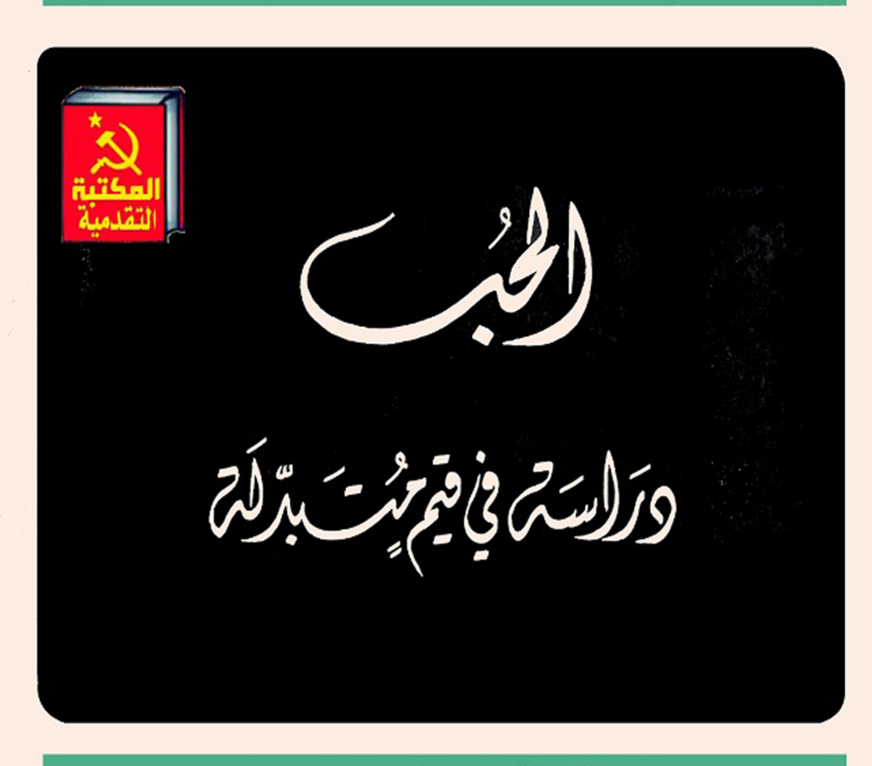
٢ دفاتر علم النفس

كريستوفر كودويل



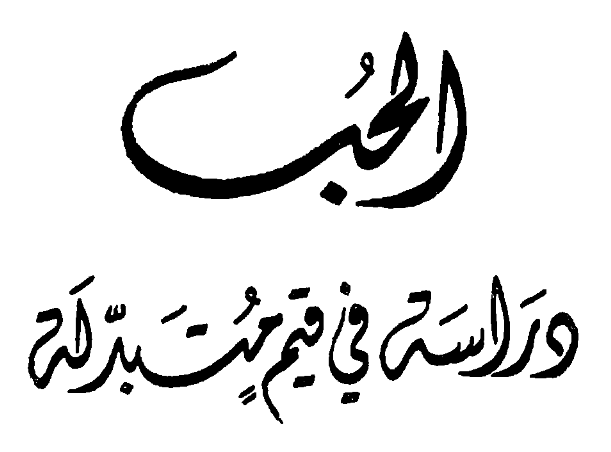
سلسلة العلوم الاجتماعية

دار الفارابي

سلسلة العلوم الاجتماعية

دفاتر علم النفس

كريستوفر كودويل



نقلها عن الانجليزية فاضل لقمان

دار الفارابي - بيروت

١٩٧٩

نقل هـذا الدفتر الى العربية عـن فصل من كتاب « دراسات في ثقافة محتضرة » للكـاتب البريطـانـي كريستوفر كودويل

دار الفارابي ــ ص.ب ٣١٨١ ــ بيروت

لمحة موجـزة
عن حياة الكاتب البريطاني الشهيد كريستوفر كودويل

عند أصيل ذلـك اليوم ، يوم الثاني عشر من شباط عـام ١٩٣٧ ، حين كانت الشمس تغالب الغيوم السوداء الداكنة لتظهر حيناً وتحتجب حيناً آخر فوق رابية خضراء بالقرب من مدريد ، قرر كودويل أن يقوم بتغطية انسحاب ثلة من رفـاقه الثوار بعد أن حاصرت موقعهم قطعان الفاشية . احتضن رشـاشه بحنان وأسند خـده المتورد الى الأخمص وراح يطلق النار ليعوق تقـدم الذئاب حتى اطمأن الى أن رفـاقه أصبحوا في مأمن . ثم غـابت الشمس قبل أن تغيب عندمـا تفجر سيل الدم من جبهة كودويل بعـد أن تحطم ذلك الرأس الذي أعطى الكثير من الفكر .

هكذا كان استشهاد ذلك الشاب البريطاني المتقد كريستوفر كودويل ولما يبلغ التاسعة والعشرين من عمره دفاعـا عن الحرية والديمقراطية في صفوف الكتيبة البريطانية الملحقة بالفرقة الاممية التي ضمت صفوة البشرية التقـدمية التي تجمعت فـي اسبانيا للوقوف في وجه زحف الوحش الفاشي . فهناك ، حيث كـانت غربـان « الفكر » الفاشي تنعب بأصواتها المبحوحة المجوجة رافعة شعـار : « الموت للفكر ، عاش الموت ! » قـدّم كودويل حياتـه الشابة مسطراً بدمـائه الحارة آخر ملاحمه وأروعها على الارض الاسبانية .

ان كريستوفر كودويل هذا هو الصحفي البريطاني الدؤوب :

كريستوفر سان جون شبرغ Christopher St. John Sprigg الذي ولد في احدى ضواحي لندن عام ١٩٠٧ ، وتلقّى تعليمه الابتدائي في مدرسة للرهبان ، ثم اضطر الى ترك المدرسة وهو ما يزال طفلا في الخامسة عشرة من عمره ليكسب قوته . وظلّ يعمل في المطابع والصحف حتى غدا كاتبا واسع الاطلاع والمعرفة لا من خلال الذهاب الى الجامعات بل عن طريق التردد الدائم على المكتبات العامة بلندن كما صرح هو نفسه في احدى المرات .

عندما أصبح كودويل ناضجا يمتلك القدرة على الكتابة كانت بريطانيا ، اعرق قلاع الراسمالية ومعها أوروبا وسائر أرجاء العالم «الحر» ، غارقة في أزمة عمت كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهذه الازمة الخانقة كانت تدفع بالشباب المتأزم والمتشكك ازاء كل ما يحيط به نحو البحث عن طريق للخلاص ، عن مثل عليا وقيم جديرة بأن يعيش الانسان لها وأن يكافح من أجلها .

في هذه الفترة القلقة والمتأزمة اهتدى كودويل الى الماركسية لا من خلال الاتصال بدعاة الشيوعية من مثقفي الجامعات ، كما فعل غيره من أمثال أودن Auden وسبندر Spender من مجايليه ، بل من خلال المعاناة الحقيقية لقضايا الحياة اليومية . وهذه الماركسية فهمها كودويل سلاحا ماضيا لتمزيق أقنعة جميع مظاهر الزيف والخداع ولا سيما تلك السائدة في الحياة الثقافية ، وأرادها نظرية شمولية تقدم الحلول الصحيحة لكل المسائل المطروحة في ميادين الاقتصاد والفلسفة والفن والجمال والاجتماع والاخلاق وعلم النفس والخ ...

كان كودويل غزير الانتاج بشكل يكاد لا يصدق ، فخلال السنوات الخمس الاخيرة من حياته ، منذ احتفاله بعيد ميلاده الرابع والعشرين وحتى استشهاده ، كتب : سبع قصص بوليسية وخمسة كتب عن الطيران ورواية جادة بعنوان « هذه يدي »

« This My Hand » وكتابـا نقديـا بعنوان « الوهم والواقع » « Illusion And Reality » وثلاث عشرة مقـالة فلسفية نقـدية معمقة صدرت في كتابين هما : « دراســات في ثقـافة محتضرة » « Studies in a Dying Culture » و « دراسات اضافية في ثقافة محتضرة » « Further Studies in a Dying Culture » وعددا من القصائد يكفي لتكوين مجموعة شعرية متوسطة الحجم . وقـد قيل انـه كان يكتب بمعدل خمسة آلاف كلمة في اليوم !

بعد أن انجز اهم كتبه وهو الكتاب النقدي : « الوهم والواقع » « Illusion And Reality » انتقل كودويل اواخر عـام ١٩٣٥ الى حي بوبلار Poplar القريب من الايست أنـد East End البائس ليعيش بين العمال ويشاركهم الحياة التي كانوا يعيشونهـا دون أي تكلف ، وانتسب الى منظمة الحزب الشيوعي في ذلـك الحي وراح يعمل بنشاط ويسهم بحماس في كـل الاعمال التي كـانت المنظمة تقـوم بهـا من توزيع المنشورات وكتابـة الشعارات عـلى الجدران وتثبيت الملصقات وجمع التبرعـات والقاء الخطب فـي الساحات العامة . غير أن هذا كله لـم يصرفه عن سـاحة النضال الاضافية التي اختارها لنفسه الا وهي سـاحة الثقافة بل كتب في الفترة نفسها العديد من المقـالات والدراسـات المتنوعة أبرزهـا مجموعة مقالاته التي كانت بعنوان « دراسات في ثقافة محتضرة » و « أزمة الفيزيـاء » ، وقـد نشرت ، مثلها مثل بـاقي مؤلفـاته الهامة ، بعـد استشهاده في اسبـانيا عندمـا دعت الحـاجة لان يترك القلم جانبا ويتنكب البندقية من أجل الدفـاع عن أشعـار لوركا وأغاني الرعـاة الاندلسيين ضد الغول الفرنكوي الفاشي .

نكتفي الآن بهذا القـدر من المعلومات عن حياة الكاتب المناضل كريستوفر كودويل كتعريف به مع نشر ترجمة احـدى مقالات

سلسلة « دراسات في ثقافة محتضرة » وهي مقالة : « الحب : ــ دراسة في قيم متبدلة » ، على أن نعود فيما بعد الى كتابة دراسة مفصلة عن مراحل حياته النضالية القصيرة ولكن الغنية ، وعن مختلف أعماله المتنوعة .

المترجم

المدخل(*)

« اننا نعيش لحظات تاريخية بالغة الفرادة . وهذه اللحظات هي لحظات الازمة بما تعنيه الكلمة حرفيا . ففي كل فرع من فروع حضارتنا الروحية والمادية يبدو أننا بلغنا نقطة انعطاف شديدة

---

* هذه المقدمة كتبها ك. كودويل لمجموعة من الدراسات النقدية بعنوان : « دراسات في ثقافة محتضرة » . وهي تضم الموضوعات التالية :
   1 ـ جورج برنارد شو ، دراسة السوبرمان البرجوازي .
   2 ـ ت. ا. لورنس ، دراسة في البطولة .
   3 ـ د. هـ. لورنس ، دراسة الفنان البرجوازي .
   4 ـ هـ. ج. ولز ، دراسة في الطوباوية .
   5 ـ الفاشية والعنف ، دراسة في الاخلاق البرجوازية .
   6 ـ الحب ، دراسة في قيم متبدلة .
   7 ـ فرويد ، دراسة في علم النفس البرجوازي .
   8 ـ الحرية ، دراسة في الوهم البرجوازي .
   9 ـ نفس عدم الرضى ، دراسة في الديانة البرجوازية .
   10 ـ الجمال ، دراسة في علم الجمال البرجوازي .
   11 ـ الانسان والطبيعة ، دراسة في التاريخ البرجوازي .
   12 ـ الوعي ، دراسة في علم النفس البرجوازي .
   13 ـ الواقع ، دراسة في الفلسفة البرجوازية .

ونحن اذ ننشر هذا الدفتر دراسته بعنوان : « الحب : دراسة في قيم متبدلة » فاننا نؤكد لقرائنا بأننا سنقوم بنشر بعض أهم هذه الدراسات في دفاتر لاحقة .

الحساسية . وهذه الروح لا تتجلى فقط في الاوضاع الفعلية للشؤون العامة ، بل وفي الموقف العام أزاء القيم الاساسية في الحياة الشخصية والاجتماعية على حد سواء أيضا .

« ... سابقا كان الدين وحده ، بمؤسساته المذهبية والاخلاقية بصورة عامة ، هو المستهدف بهجمات التشكيك والشك . ثم بدأت عملية تحطيم الاصنام تحطم كل المثل والمبادىء التي كانت فيما مضى مقبولة في قطاع الفن . وهذه العملية اقتحمت الآن هيكل العلم . ويندر أن يجد المرء في هذه الايام بدهية علمية لم تتعرض النقض من قبل هذا الباحث أو ذاك . وفي نفس الوقت لن تعدم أية نظرية فارغة لا تتجاوز الهراء ولوك الكلام تطرح في الساحة باسم العلم أن تجد بكل تأكيد مؤمنين بها وتلاميذ لدعاتها في هذا المكان أو ذاك » .

ماكس بلانك : « الى أين يسير العلم ؟ » ١٩٣٣

كما يتضح من الفقرة المقتبسة التي أوردناها ، ليس من الضروري للمرء أن يكون ماركسيا حتى يعلن حقيقة أن الثقافة البرجوازية مصابة بمرض خطير . ففي ميادين الفن ، والعلم ، والدين ، والاقتصاد ، والاخلاق هناك نزاع وصراع ، ويمكن استخلاص مئات الاعترافات بالقلق والتشاؤم من كتابات القادة المرموقين للثقافة المعاصرة بدءاً باينشتاين وانتهاء بفرويد . فكل الثقة السهلة التي كانت قبل قرن مضى قد تبخرت . والشيء الوحيد الذي يعزي الدين نفسه به هو أن العلم يؤكد السببية ؛ في حين يخلد العلماء الى الراحة من أن الناس « العمليين » (الواقعيين) عاجزون عن توجيه دفة سفينة الدولة الا بدفعها نحو الصخور .

ومع ذلك فان الثقافة البرجوازية حققت خلال نصف القرن الاخير الشيء الكثير . ومن تطوراتها التجريبية : النسبية والفيزياء النووية وعلم الوراثة ورؤية جديدة للطبقات الاكثر عمقا في عقل

الانســان ولمختلف أنمــاط العلاقــات الاجتمــاعية التي كشـفت الانتروبولوجيا النقاب عنها ، ومئات الاختراعــات التكنولوجية مثل الطائرة واللاسلكي والنقل الآلي والطاقة الكهربائية . فلماذا تكون هذه الثقافة التي سجلت كل هذه الانتصارات غارقة في اليأس ؟

انها يائسـة لأن كل اكتشاف شبيه بلمسة ميداس Midas التي تمهد لخيبة أمل جديدة . فالفيزيــاء النووية تبدو كما لــو كانت قــد انتزعت الواقعية من عــالم العلم عبر انكارها للسببية . أمــا الاكتشافات السيكولوجية فقد أنتجت فوضى لا أمل فيها وسديما تتصارع داخله مئات المــدارس السيكــولوجية المختلفة اختلافــا جذريــا على تولي القيادة . ويزعم علم وصف الانسان (الانتروبولوجيا) البرجوازي بأنه برهن على أن ثبات المجتمعات واستقرارها مبنيان على الاوهام . غير أن الانسان العصري هــو انسان دون أوهام ـــ أو يعتقد ذلــك . أمــا الزيادة التي لا نظير لها في القوى المنتجة فقد أنجبت ليس السلم والوفرة والسعادة ، بل الحرب والمجــاعة والبؤس . والفوضى هي مفتاح الازمــة في كل مجال من المجــالات . فالازمة تتسم بهذه الفوضوية : فرغم أن الجميع متفقون على ارادة أن تؤدي جهودهم الى نتيجة معينة ، فان الذي يحصل بالفعل هو نقيض ذلــك تماما . وهي ، أي الازمة ، تتسم بهذه الفوضوية أيضــا : فبمقدار مــا يتوق الناس الــى التوصل للحقيقة المشتركــة ، والعقيــدة المشتركة ، والنظــرة المشتركة الى العالم ، يجدون أن جهودهم المبذولــة لبناء الصرح الايديولوجي قــد ضاعفت من مجموع وجهــات النظر المتناقضة والمتحاززة تجــاه الواقع .

وما تفسير ذلك ؟ فاما أن يكون الشيطان قد توغل عميقا في داخلنا وهو عظيم القوة ، أو أن هناك تفسيرا سببيا لمرض أصاب الاقتصــاد والعلم والفن جميعا . ولمــاذا اذن أخفق كل المحللين النفسيين ، والايدينغتونــات Eddingtons ، والكينات Keynes

والشبنغلرات Spenglers ، والقسس ، الذين عاينوا المشهد من أولـه الى آخره ، في تحديد مصدر لحقنة تصلح لجميع جوانب الثقافة العصرية ، تحديدا واضحا بما فيه الكفاية ؟ للاجابة يجب على هؤلاء أن يمسكوا بتلابيب كلمات هيرزن Herzen الذي قال : « نحن لسنا الاطباء ، نحن المرض بعينه ! » .

ان المهمة الاولى التي تواجه الماركسي هي أن يفصل عن هذا السديم تلك العناصر التي تجسد الاكتشافات التجريبية الحقيقية ، ويضعها في أماكنها المناسبة داخل اطار نظرته التركيبية (Synthetic) الى العالم . وهذا أمر سهل نسبيا . أما الامر الذي يتطلب جهدا أكبر فهو تحليل السبب الذي جعل من هذا الاكتشاف أو ذاك ينحدر ليغدو سيئا وهو بين يدي مكتشفه . فما الذي يجعل الثقافة البرجوازية محكومة بهذا القدر المشؤوم المتمثل في أن تقدمها لا يساعدها الا في تعجيل اهترائها ؟ وكيف يمكن لسبب واحد أن يفعل فعله في العديد من الميادين المختلفة ، ويؤدي الى العديد من مختلف أشكال الانحطاط والفوضى ؟

ان دراساتنا تتناول المهمتين كلتيهما، التركيبية والتحليلية ، ولكن الثانية تعتبر أكثر أهمية وقيمة في هذه المرحلة . وقد يبدو بعض هذه الدراسات نقدية اللهجة أكثر من اللازم عندما تعالج أثرا يبدأ بعبارة اقتبسها كاتبه من لينين . الا أن للموقف النقدي من الثقافة البرجوازية قيمة تتجسد في أنه على الدوام تطبيق للمنهج نفسه . فـ « الازمة » التي تعاني منها الثقافة البرجوازية في الفن والفلسفة والفيزياء وعلم النفس والتاريخ والسوسيولوجيا والبيولوجيا هي دوماً عائدة للسبب نفسه . وهذا الامر ليس صدفة ، لأن ذلك المرض المدمر كان كامناً في القوة الديناميكية للحضارة البرجوازية في الاساس ؛ غير أنها الآن وبعد انجاز أقصى ما تقدر عليه ، غدت قوة مرضية ، قوة هي المرض بعينه . فالمحركات المهترئة محكومة بأن تصبح عقبات وفرامل .

والحقائق المهترئة تغـدو أوهاما . وهـا هي الثقافة البرجوازية تحتضر وتلفظ أنفاسها الاخيرة بين يدي الاسطورة .

ولا بد من القول هنا بـأن الثقافة البرجوازية لا تعـاني من الوهم ، انما من زوال الاوهام وتلاشيها . فقد اعترف الجميع : فرويد ويونغ و د. هـ. لورنس ورئيس أسـاقفة كانتربري ، بهذه الحقيقة . وبالتحديد فـان خطر وهمها كامن في أنها تعتقد بـأنها ليست واهمة . لقـد نسفت (أهرقت دمـاء) كل أوهامها الثانوية عـن الدين والاله والاخـلاق والديمقراطية والغائيات Teleology ومـا وراء الطبيعة (الميتافيزيقة) . غير أنها أعجز من أن تنقـذ نفسها من الوهم البرجوازي الاساسي ، ونظراً لكونهـا غير مدركة لهذا الوهم ، وبما أن هذا الوهم قـد تعرى الآن تعرية كاملة وبان جوهره ، فـان الثقافة البرجوازيـة تدأب على قلب كـل البناء الايديولوجي العصري رأسـاً على عقب .

وهذا الوهم يكمن في اعتبار الانسان حرا بالطبع . وعبارة « بالطبع » هنا تعني أن جميع مؤسسات المجتمع انما وجدت للحد مـن غرائزه الحرة وشلهـا ولتوفير الفرامل التي ينبغي عليه أن يتحملها وينزلها الى حدودها الدنيا قـدر الامكان . ومن هـذه المقدمة فـان الانسان هو في أحسن حـال وأسعده وأنبله عندمـا تتاح لـه فرصة تحقيق رغباته بحرّية .

ان هذا الوهم هو ميثاق النهضة بالطبع بالنسبة للبرجوازية . فقد طالبت لـ « انسان الطبيعي » بالتحرر من القيود والامتيازات والاحتكارات الاقطاعية . وقيل بـأن العلاقة الاساسية في المجتمع لا بد لها من أن تكون تجسيدا للتحرر من أية علاقة ـ التاجر الحر، والعامل الحر ، ورأس المـال الحر . وأكدت البرجوازية بـأنه ما أن تتاح للجميع فرص تحقيق رغائبهم بحرّية حتى تتحقق خـدمة المصالح العليا لكل المجتمع . وهذا المبدأ المتفوق على المبدأ الاقطاعي أهّل الطبقة البرجوازية لأن تكون سـامية (متفوقة) وديناميكية ،

كما أعطى ، ولو الى حين ، لهذا المبدأ تكريسا وتقديسا بوصفه يجسد الحقيقة الخالدة . وهذه الفرضية هي التي ما تزال تشكل الارضية التي تستند اليها الثقافة البرجوازية .

فلو كانت صحيحة لسارت الامور على ما يرام . وما أروع أن تكون الحرية بمثل هذه البساطة بحيث يكون الانسان حراً بالطبع ! ولكنها فرضية غير صحيحة . فالحرية ليست من نتاج الغرائز بل هي من نتاج العلاقات الاجتماعية بالذات . ان الحرية مخبوءة في ثنايا علاقات الانسان بالانسان . ان مطلب البرجوازية التي رفعت شعار تحرير الانسان كان مطلبا غير قابل التحقيق . فالانسان لا يستطيع أن يجرد نفسه من علاقاته الاجتماعية مع بقائه انسانا . غير أن الانسان قادر على أن يغمض عينيه أزاء تلك العلاقات الاجتماعية . فبوسعه أن يلبسها لبوس العلاقات مع السلع ، مع السوق غير المشخص ، مع النقد ، مع رأس المال ، حتى تبدو علاقاته عندئذ كما لو كانت قد أصبحت تملكية Possessive . انه « يملك » السلع والنقود ورأس المال . وتبدو سائر علاقاته الاجتماعية وقد أصبحت علاقات مع شيء ، وبما ان الانسان متفوق (سامٍ) على الشيء ، فانه حر الآن ، انه السيد . غير أن هذا ليس الا وهماً . فمن خلال اغماض العين عن كل العلاقات القائمة بين الناس الذين يؤلفون المجتمع ، وهم مادته وجوهره الحقيقيين ، يكون الانسان قد جعل من نفسه عبداً لقوى يعجز عن التحكم بها ، لأنه لا يعترف بوجودها . انه واقع تحت رحمة السوق ، وحركة رأس المال ، والتدهور حيناً والتفجر آخر . لقد ضلل نفسه بنفسه . وهذه الحقيقة تؤكدها الاحداث بتجاربها المحايدة .

ان هذه الحرية البرجوازية الممنوحة لكل انسان ليناضل في سبيل رغباته الحرة ومن أجل مصلحته الخاصة لهي بعيدة كل البعد عن أن تجعلنا أحرارا بعد أن أسلمت رقابنا للحظ وللصدف .

فالقــدر الاعمى ، على شكل الحرب والبطالــة والكساد واليأس والعصاب، يقتحم كيان البرجوازي « الحر » وأتباعه « الاحرار » . ان نضالاته تقوده الى اقــامة سلطة رأس المال المــالي ، وتشد من أزره ، أو ، في حــال كونه عــاملا « حرا » ، فلا بــد له من اللحاق بقطيع الانتاج الموسع في المعمل . وبعيدا عن أن يصبح حراً يلقى بالانسان كما لو كان ورقة في مهب عواصف التغيرات الاجتماعية . وكل هذه الفوضى والعجز والصراع المتداخل تنعكس في ثقــافته . ان قوى الانتاج قد سبقت البرجوازية الحرة أشواطا وهي تدمرها وتطحنها دون رحمة أو شفقة جنباً الى جنب مع أوهامها .

وهل باستطاعة مثل هذا الخطأ البسيط ، اذا كان خطــأ ، أن يصيب الممــالك الباردة للفيزيــاء ، والاجواء البعيدة للفن ، والعــالم الداخلي لعلــم النفس ؟ وهل بوسعه أن يفسد الفلسفة ويعيق طريق نجاح البطل ؟ وكيف يمكن لهذا الامر أن يتجلى في كل نواحي الايديولوجيا ، بوصفه العــامل المفسد دوما ، دون أن تتم مــلاحظته ؟ الا أنــه بالضبط لأنــه يظهر في كل مكــان مــن ايديولوجيته ، مثل التقلص الفيتزجيرالدي ، في قياسات تسارع الاثير ، فــان البرجوازي يعجز عن رؤيته ، مثل عجز الفيزيائي عن ملاحظة السرعة التي تدور الارض بها في الاثير .

وهذه « الدراسات في ثقافة محتضرة » يمكن توحيدها مــن حيث موضوعها الواحــد وان اختلفت وتنوعت . وما هذا الموضوع الا تلك الكــذبة الكامنة في قلب الثقافة المعاصرة ، تلك الكذبة التي تقتلها ؛ ومــا أن نتعمق أكثر حتى نصل الى الحقيقة التي هي تتمة هذه الكذبة ، الحقيقة التي ستحول الثقافة وستعيد لها عافيتها .

الحب
دراسة في قيم متبدلة

لعل الخلل الطبيعي البشري كامن في الظن بـأن الاشياء لا تتغير ، وأن الافكـار أبدية ، ومـا يجري التعبير عنه بالكلمة شيء ثابت لا يتحول ولا يتبدل مثل الكلمة نفسهـا . وتتألف الحكمة بصورة رئيسية من تعلم أن تلـك التلميحات الغامضة الى أجزاء من الواقع ، التلميحات التي ندعوها بالمفاهيم ليست فقط عـاجزة عن وصف الشيء الذي تلمح اليه بل وعـاجزة حتى عن الاشـارة الى الشيء نفسه ، بل الى شيء مـا مختلف وعابر يتراءى لعيوننا المهتمة أثناء عملية الصيرورة . ان الكلب يعمم على كل الاشيـاء الصغيرة التي تجري مفهوم « الفريسة » . ورغم أنه لا يلفظ الكلمة التي تحدد ذلك فـان الطبيعة الثابتة لمفهومه يتجلى بوضوح مـن ممارسته للملاحقة المسجلة . اننا نستطيع أن نرى مـدى حماقته لأننا قسمنا « الفرائس » الى أرانب وجرذان وقطط بل وحتى الى عـدد من القطط الافرادية لها عـادات مختلفة . غير أننا في مستوى أعلى قليلا نقع في الخطأ نفسه .

فنحن ، مثلا ، نميل الى الاعتقـاد بأن الحب شيء محـدد وواضح تماما . واذا كنا شعراء رومانسيين ، روائيين أو من رواد الافـلام السينمائية فاننا معرضون لخطر تصويره كما لو كـان حفرة سماوية في الجنة لا نلبث أن نقع فيها . وليس هناك ذرة من

الشك في كوننا أمـــا فوق الحفرة أو عند حافتها أو في أعماقها أو بعيدين عنها وفي أمـــان . وبالنسبة لعالم نفس الغرائز ليس الحب الا استجابة فطرية داخلية أي نمطا سلوكيا محددا بوضوح ينطلق بفعل محرض مـــا ، تماما مثل لعبة أوتوماتيكية تنطلق الى أداء الحركة المرسومة لها بعـــد وضع قطعة النقود في المكـــان المخصص لها . أمـــا بالنسبة للمحلل النفساني فـــان الحب هو مقـــدار من الطاقة النفسية (الروحية) المعروفة باسم الليبيدو ، وهذا المقدار محـــدد ومتجانس كما لو كان أوقية من الشحم توضع في صرة تأخذ أي شكل عن طريق الضغط والتمديد وتدور حول نفسها وتتحول الى ســـائل والخ ... غير أنها تبقى مرئية على أنهـــا نفس كمية الشحم .

ولكن « الحب » هو الاســـم الذي يطلقه الانسان على العنصر العاطفي الكامن في العلاقـــات الاجتماعية الا اذا أردنـــا أن نحصر الكلمة في اطـــار نمط سلوكي متخصص يستند الى المؤسســـات الخاصة للأمومة والملكية القائمة في المرحلة التاريخية التي نعيشها . فكل اللغات والاستعمـــالات تبدو وكأنهـــا متفقة على أن عبارات : « أنـــا أحب « J'aime, I love » يمكن استخدامها للدلالة على العواطف الجنسية والاجتماعية على حـــد سواء . ولدى الفرويدي تفسير لهذه المسألة سنعود اليه فيما بعـــد . اذا كـــان تعريفنا للحب صحيحا فان من الصحيح ان الحب هو الذي يجعل العالم يدور . غير أنه سيكون أكثر صحة الى حد ما لو قلنا أن دوران المجتمع وحركته وفق هذا النسق أو ذاك هو الذي يحدد ماهية الحب وسماته . فهذه واحـــدة من العلاقـــات الشبيهة بالعلاقـــة بين المعرفة والكينونـــة (الوجود) والتي لا يمكن فهمها الا بطريقة جـــدلية (ديالكتيكية) . فالفكر يقود الفعل غير أن هذا الاخير ، مع ذلـــك ، هو الذي يولـــد الوعي ، وهكذا فـــان الطرفين منفصلين يتصارعان ويدور كل منهما حول الآخـــر ولذلـــك يتطوران بصورة لانهـــائية . فكما أن الحياة

البشرية تندغم بالمعرفة كذلك تماما يكـون المجتمع تجسـيدا للانتاج مندغما بالحب . ان هذا الكـلام ليبدو فجاً بل ومثيرا للسخرية لأي شخص اعتاد أن ينظر الى الحب نظرته الى شيء أثيري روحي ، والى الانتاج الاقتصادي نظرته الى شيء سفلي وضيع . ولكننا انما نحب بأجسادنـا ونأكل ونعمل بأجسادنا ، ومـا الحب العميق بين شخصين الا ذلك الذي يتميز ، بصورة عامة ، عن أشكاله العابرة والمؤقتة بالتجربة التالية : أن الشخصين كليهما يريدان أن يعيشا معا ويؤلفا بالتالي خلية اقتصادية في المجتمع . ونحن نعلم أن الحب بشكله الجنسي يظهر بين الازواج فيما قبل الانتاج الاقتصـادي والاجتماعي . غير أننا نعلم أيضا أن الانتاج الاقتصادي في شكله الفردي الاولي المتجسد في الاستقلاب(١) (Métabolism) انما يظهر بالضرورة قبل الحب لأن ذلـك هو جوهر الحياة . ففي الخلية الاولى البدائية يكـون الاستقلاب موجـودا قبل ظهور الحب الى الوجود ، ويتم تكـاثر الخلايـا في بداية الامر عن طريق الانشطار عبر نـوع من التجدد الخلوي (الانـابوليزم) الفائض ، ولا تتجمع لا في مستعمرات (سلوك اجتماعي) ولا كأزواج للتلاقح (سلـوك جنسي) . ولكن كون الاستقلاب فجر تاريخ الحياة بالذات ويسبق علاقة الحب ، لا يعني أن الحب حـدث عرضي متلون على سطح الحياة وهامشها . وعملية الاستقلاب تنطوي على مستوى مـادي من الرواسب التي دعاها الناس باسـم ايروس Eros ، وذلـك في أعمـاق التحايث المطلوب بـين النويـا (الموكولات) البروتينية التي لـم تفهم جيدا بعـد . لا شك أن الحب جـذورا كـامنة في المـادة .

لقد توصل كل من الفكر الفلسفي والشعبي على حـد سواء الى التعرف على هذه الاسس العميقة للحب . فقد أعطى الفكر الشعبي الاسـم نفسه للارتباط العاطفي الذي يشد الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر جنسيا ، ويشد الرجل الى الرجل في الصداقة ،

ويشد الابوين والاولاد في اطار العلاقات العائلية . فحب الملك لشعبه ، وحب التلميذ لأستاذه ، وحب الحيوان لصغاره ولصاحبه كانت جميعا توضع داخل قالب واحد رغم الخلافات الواضحة فيما بينها . وليس صدفة أن كل الاديان الكبرى التي حركت عقول البشر كانت جميعا تكثر من الحديث عن الحب . فالاديان كانت على الدوام تستمد قوتها من تجسيدها رمزيا للعلاقات الاجتماعية المبهمة ، وبما أن هذه العلاقات الاجتماعية تمر عبر قناة الحب فقد ركز الدين في حديثه على الحب لدى كلامه ونسج أوهامه وتصوراته عن كل من الاله والخلاص والجنة والجحيم والنعمة . فزعم المتصوفة بأن **الرب هو الحب** ، ونشيد القديس بولس حول الحب ، تعبيران دقيقان عن المضمون المشترك الثمين لكل الاديان التي كانت في الماضي قوى اجتماعية . ان الثالوث والملائكة الاطفال (الشاروبيم) والروح القدس في الطهر واتصالات القديسين ، كل ذلك ليس موجودا ، ولم يكن الناس يهتمون كثيرا في الواقع عما اذا وجدت أم لا ، لأن هؤلاء الناس في الماضي كانوا مكتفين بيهوا وشاؤول ، ببوذا والنيرفانا ، ببعل وقلقميش . فما يستأثر باهتمام الناس هو العنصر العاطفي في العلاقات الاجتماعية ، هذا العنصر الذي تجسده وترمز اليه هذه الاساطير والخرافات ، والذي يجعل الانسان ما هو عليه في كل عصر . وهذه العاطفة ليست بعيدة عن القاعدة الاقتصادية لهذه العلاقات بل منبثقة منها ، مما يجعلها بالتالي تحدد الدين . ان مواصفات الانسان في كل عصر تتحدد بعلاقاته العاطفية والتكنولوجية ، وهذه العلاقات ليست منفصلة احداها عن الاخرى بل هي جزء من عملية اجتماعية واحدة .

أما الموقف الفرويدي فينطلق من اعتبار كل العلاقات العاطفية تلاوين مختلفة الى هذا الحد أو ذاك للحب الجنسي وان كانت موجهة عن طريق التضليل الى غير غايتها الاصلية . وذلك

هو السبب في أن الناس يطلقون اسم « الحب » على كل أشكال وتلاوين العلاقات الودية الطرية استنادا الى أنها ليست الا تعبيرات جنسية معدلة أو « ليبيدو » ضلل عن أهدافه ، بكل بساطة . فالود واللطف ليسا الا جنسا مكبوتا . ومع أن وجهة النظر هذه قوية الجاذبية بوصفها تبسيطا ، فانها مستندة الى تفكير مشوش . فهي تفترض وجود هدف واضح يتمثل في الجماع الجنسي ، وأن كل حب لا يبلغ هذا الهدف ليس الا حبا مقموعا . ان مثل هذا الرأي يفترض مسبقا شيئا محددا له مثل هذا الهدف ، فاذا لم نؤمن باله ما للحب ، فان ذلك الشيء وحده هو القادر على أن يكون الحبيب . ولكن النفس التي يفترض في جنسها المكبوت أن يتحول حبا ، بالتحديد ، ليست هي نفسها واعية للهدف الحقيقي . لنأخذ مثال الجنسية الطفولية التي تشكل جزءا هاما من نظرية فرويد في الحب . فكيف يمكن للعواطف الطفولية أن تكون حبا مقموعا أو مخيبا ؟ فالطفل ، من جهة ، لا يستطيع ، بسبب انعدام خبرته في الجماع الجنسي ، أن يرغب في مثل هذا الجماع بصورة واعية ، كما لا يمكنه أن يرغب في ذلك بصورة لاواعية (لا شعورية) ، أي جسديا وعضويا ، لأنه لا يملك الاجهزة ولا ردود الفعل الموصلة الى الجماع الجنسي . وبدون ردود الفعل المناسبة يستحيل على الجماع الجنسي أن يكون موجودا بالنسبة للاوعي (للاشعور) . وحب الطفل لذلك هو نوع آخر من الحب ، انه حب طفولي . صحيح أن الحب الطفولي مرتبط بمناطق لا تلبث بأكثريتها أن تصبح فيما بعد شهوانية جنسيا ، غير أن ذلك لا يعني الا أن الانسان مادي وله جسد يستخدمه في صلته بالاجساد الاخرى . فصلاته بالاعضاء الآخرين في العالم لا بد لها من أن تكون صلات فيزيائية بل ولمسية (ملموسة) بصورة رئيسية عندما يكون طفلا ، وبصرية سمعية أيضا فيما بعد . ان الحب الطفولي ليس حبا جنسيا مقموعا ،

لأن الطفل لا يعرف الجماع الجنسي كهدف من جهة ولا هو قادر على ممارسته من جهة ثانية . انه حب طفولي لا أكثر ولا أقل . أما القول بأن الحب الطفولي سيغدو فيما بعد حبا جنسيا فتعبير عن حقيقة أولية . و « القمع » هو الذي يفرض المسألة جدلا . لنفترض بدلا من ذلك ، أن فرويد قال : ان الحب الطفولي هو حب الراشدين نفسه « معدلا » . عند ذلك سيظهر الخلل فورا . ان المسألة معكوسة ، فالحب الجنسي عند الراشدين الكبار هو الحب الطفولي « المعدل » . فهو ينطوي على النمط السلوكي الاكثر بدائية غير أنه ، كما يعترف فرويد ، يفبرك ذلك ليحوله الى منظومة جديدة أكثر تعقيدا وأشد قوة ، بسبب توافر ردود الافعال المرتبطة بالجماع الجنسي ، والهورمونات الجنسية الثانوية ، وسائر التوجهات والمضامين النوعية المرتبطة بالبلوغ للتبدلات النفسية . ولكل ذلك نجد أن فرويد يوقف تطور الحب على رأسه . فكأنما يريدنا أن نعتبر بأن جسد الطفل انما هو جسد راشد (بالغ) مقموع أو مكبوت كما نعتبر حياة الطفل العاطفية على أنها حياة بالغ (راشد) ولكنها « جامحة ومتعددة الاشكال » .

وبنفس الطريقة فان علاقة الاب أو الام بالطفل ليست حبا جنسيا مقموعا أو مكبوتا . فالحب الجنسي استجابة ـ سلوكية تنطوي على رغبة في ممارسة الجنس يثيرها دافع محدد . والطفل ليس هو هذا الدافع . ومن المشكوك فيه كثيرا أن يكون الطفل هو الدافع الاساسي وراء الحب الابوي الغريزي في كل الاحوال . وظاهرة « الحمل الكاذب » لدى الكلبات تبدو وكأنها تبرهن النقيض . فهذه الحيوانات تنمي أثر الحرارة ، في ظل ظروف خاصة ، عواطف أمومة وما يتفق معها من أشكال السلوك ، دون أن تكون حاملا في حقيقة الامر . وان نعتبر حب الامومة عندها حبا جنسيا مقموعا موجها نحو جراء غير موجودة أساسا ليس الا تحويلا لعلم النفس (البسيكولوجيا) الى أوبرا هزلية ، ان

نمط السلوك المترافق مع الحب الابوي أو الامومة مختلف كليا عن نمط السلوك الجنسي .

ومرة أخرى نقول ان علاقات الصداقة الاعتيادية بين أشخاص من الجنس ذاته ، بكل تنوعها وتدرجها بدءا من الصداقة الدائمة الحميمة حتى الود الذي نحس به أزاء شخص لم يسبق لنا أن رأيناه لمجرد كونه أحد مواطنينا أو مخلوقا شبيها بنا يعاني ، كل هذه العلاقات تؤلف سلسلة من الانماط السلوكية المتميزة . وليس من العلمية في شيء أن نعتبرها أنواعا من الحب الجنسي المقموع أو المكبوت . وفي الحقيقة فان اعتبارها كذلك يفقد المفهوم الواضح تماما للشذوذ الجنسي كل معنى . فنمط السلوك العاطفي الجنسي في الجنسية المثلية وفي ممارسة الجنس مع الحيوانات يتوجه الى أهداف غير اعتيادية ، ويتكيف بالتالي ، وبالضرورة ، بما ينسجم مع تلك الاهداف الشاذة . ولكن اذا كان كل الود نحو أشخاص من نفس الجنس أو نحو الحيوانات مجرد نمط سلوكي جنسي متكيف مع الظروف الجديدة ، فما هو الفرق ؟ وكيف يمكننا أن نفرق بين الصداقة والشذوذ ؟ ان الخطأ ناجم عن عدم فهم ماهية الغريزة في حقيقتها . ان الغريزة هي نمط سلوكي داخلي محدد أو سلسلة من الاستجابات مشروطة أو معدلة بالتجربة . فكلمة « الحب » كما تستخدم بصورة عامة ، تنطوي على مثل تلك الانماط السلوكية المعدلة كالانشراح والاستمتاع بحضور آخرين، والحساسية تجاه هذا الشخص المعين دون ذاك ، والجود مع الآخرين ، والرغبة في اللقاء بهم ، وأشكال مختلفة أخرى من السلوك المتعاطف ، والتي لا يستطيع علماء النفس (البسيكولوجيون) الا وصفها وصفا فجاً وشكليا . وتنطوي هذه الكلمة (الحب) أيضا على الرغبة في تحقيق الجماع الجنسي (ممارسة الجنس) . ولا يجوز اطلاق اسم : الحب الجنسي الا على تلك الانماط السلوكية التي يدخل في تركيبها

هذه الرغبة الاخيرة ، وما النظر الى سائر أشكال الود على أنها تتضمن رغبة مقموعة في الجماع الجنسي ، كما تفعل الفرويدوية الى حد بعيد ، الا تبنيا لخطة الفارس الابيض :

ان يصبغ المرء لحيته باللون الاخضر
وأن يستعمل بعد ذلك مروحة كبيرة
قادرة على اخفائها تماما .

ان الانسان ، شأنه شأن سائر الحيوانات ، مخلوق تتعرض أنماط سلوكه الداخلية العميقة (الفطرية) للتعديل من جراء التجربة ونحو « الافضل » عادة ، أي نحو صيرورتها أكثر مهارة في التعامل مع الواقع . وهذه العملية تعرف باسم التعلّم . ونحن نتعلم من خلال استجابات الحب عندنا ومن خلال غيرها من الاستجابات . واطلاق اسم القمع أو القهر (الكبت) على هذه العملية ليس الا قلباً لسيرورة التطور رأسا على عقب ، أو اقحاما لها في الاتجاه المعاكس .

من الطبيعي أن الاستجابات السلوكية الجنسية والودية مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ، وكل من النمطين السلوكيين ينطوي على مضامين مشتركة بين الاثنين. غير أنه نظرا لأن الجسم الواحد، بجهاز عصبي مركزي واحد ، قاعدة مشتركة وعامة لكل سلوك العضوية الواحدة ، فان من الواضح أن تكون سائر أنماطه السلوكية مضطرة لأن تحتوي على عدد كبير من المضامين المشتركة. قد يبدو الجري مثلا عند أي حيوان كما لو كان جزءا من سلوك جنسي أو جزءا من سلوك الدفاع عن النفس (حب البقاء ــ الخوف) . غير أن ذلك لا يعني أن هذه الغريزة هي الغريزة الاخرى عينها معدّلة أو مقموعة أو مكبوتة .

ما أن يصل المرء الى تحرير عقله من الكيانات الخرافية (الاسطورية ــ الميثولوجية) عن هذه الغرائز المنفصلة الشبيهة بالارواح المتميزة والمغروسة في قلب الحيوان أو الانسان ، حتى

تنجلي الامور أكثر أمامه حول هذه النقطة .

لقد تحولت الروح الوحشية ـ تلك الدمية الموجودة في الآراغوز وتتولى شد الخيوط ـ في موضوعة الغرائز الى علم النفس (البسيكولوجيا) . وهذه الدمية ، عند فرويد ، تحت اسم الليبيدو أو ايروس Eros الخالد ، تبدو من خلال أغرب القنوات كما لو كانت نوعا من تجسيد المفاهيم البرجوازية عن الحرية ورمزا لها ، مثل ما هي الحال في الانسان الطبيعي عند روسو . ان الليبيدو سيء الحظ يستغل ويقهر ويقيد بأقسى الاساليب عبر بنية المجتمع ومن خلال أشكال معاناته وعذاباته يولد كل الظواهر والمقولات السوسيولوجية والايديولوجية . وكل هذا ليس الا مجرد عودة الى مفهوم « الفلسفة الطبيعية » القديمة حول وجود قوة حيوية داخلية ذات رغبات وأهداف خالدة تخصها هي بالذات .

وهذا المفهوم يقود فرويد الى افتراض أن الشيء مهما تحول وتبدل يبقى هو ذاته مقموعا أو مصعّدا . ذلك يعني نفي التغيير وانكاره . فاذا كانت التربة تصبح زهرة ، فان هذه الإخيرة ليست مجرد تراب مقموع أو تم تصعيده ، لا شك أنها لا تزال مركبة من العناصر ذاتها ، غير أنها زهرة أيضا في الوقت نفسه ، زهرة بطبيعتها ومواصفاتها وقوانينها الخاصة بها . وحتى هنا يقع فرويد في خطأ آخر . اذا كان الشيء المشتق من شيء آخر هو نفس هذا الشيء الآخر لا أكثر ولا أقل ، فان علينا أن نقول بأن العلاقات الاجتماعية ليست الا العلاقات الجنسية ؛ وعلينا أن نقول بأن الحب الجنسي ليس شيئا آخر غير العلاقات الاجتماعية . من حيث التطور كانت العلاقات الاجتماعية البدائية سابقة على العلاقات الجنسية البدائية اذا كانت الاعتبارات التالية صحيحة :

بصورة عامة يفترض بأن نشوء الافراد كان محايثا ومترافقا على العموم مع نشوء الجماعات . وقبل وصول الطفل الى الحب

الجنسي يمارس أولا العلاقة الاستقلابية البسيطة القائمة بين الام والجنين ، هذه العلاقة التي يستحيل أن تنطوي على أي حب جنسي ، اذ لا وجود في هذه الحالة لأية مناطق أو ساحات جنسية (مثيرة) . فهذه العلاقة علاقة اقتصادية بين الام والطفل . وأخيرا ، تظهر الاستجابات الجنسية المتميزة خلال أزمة المراهقة . وقد يقال بأنها نتيجة للاباضة والامناء . ولكن هاتين العمليتين أحاديتي الخلايا « بروتوزويك » Protozoic في حين أن الانسان عضوي كثير الخلايا « ميتازويك » Metazoic . وفي الميتوزوا (متعدد الخلايا ــ العضوية) تأتي العلاقات الجنسية بعد العلاقات الاجتماعية الابسط للجينات (الجنين) وللتغذية .

ان الشيء نفسه ينطبق ، على أي حال ، على البروتوزوا (وحيدات الخلية) . فالشرط السابق على كل من الحيض والامناء هو انتاج كل من البويضة والحييوان المنوي . وهذه العملية هي عملية خنثوية وجزء من الاقتصاد الخنثوي لخلايا الجسم المرتبطة فيما بينها برابط الاستقلاب الذي هو رابط اقتصادي بشكل واضح . ان علاقات خلايا الجنس الاولى هي لذلك خنثوية قبل أن تصبح جنسية . فعلاقاتها الخنثوية فيما بينها تسبق الجنسية دوما وهذه الاخيرة تنمو من الاولى بوصفها تميزا لاحقا . وفي الحقيقة يجب على الوضع أن يكون كذلك ببساطة . فقبل أن يستطيع التكاثر أن يتقدم عن طريق الحيض ، لا بد من حصوله على طريق الانشطار لأن من المستحيل رياضيا الحصول على العديد من الواحد عن طريق الدمج أو الجمع . لا بد للانشطار من أن يأتي أولا وهو يتطلب المزيد من التجدد الخلوي الذي ينطوي بدوره على أساس اقتصادي بدائي . وهذه الاعتبارات تبين بجلاء أن **الحب ليس الا** علاقات جنسية استنادا الى مبدأ « **ليس الا** » . ولكن الاختصار عن طريق هذا المبدأ ، مبدأ « **ليس الا** » باطل وسقيم . فالحب الجنسي عند الجنس البشري

هو **شيء أكثر** من الاستجابة الفطرية الداخلية التي تحقق الدمج بين الخلايا المؤنثة والخلايا المذكرة . والعلاقات الاجتماعية السائدة بين بني البشر هي أشياء أكبر وأكثر من عمليات الاستقلاب التي تنسق فيما بين خلايا هذا التجمع الخلوي أو ذاك . ان الحب الودي العاطفي والغيرية الاجتماعية هما نتاج فترات طويلة من التغير التاريخي ، وهذا التغير تغير حقيقي وليس مجرد ظهور لكيانات قديمة خالدة مرتدية أقنعة معينة . غير أن عالم النفس الفريزي (بسيكولوجي الغرائز) يبدو ، مثله مثل بارمنيدس عصري ، مصراً بعناد على عدم الاعتراف بحقيقة « الصيرورة » .

ان أبسط العلاقات بين الخلايا ، كما نشهدها في الجسم العضوي العادي أو في تجمعات وحيدات الخلايا الخنثوية المعروفة باسم المستعمرات ، ما هي الا علاقات اجتماعية اقتصادية بدائية تشكل الاساس الذي ازدهرت منه قوى وعلاقات الانتاج في المجتمع البشري . الا أن ذلك لا يستتبع القول بأنها **الشيء نفسه** . وقد تم التعبير عنه بوسيلة مختلفة . فهي هي على حقيقتها وتخضع لقوانينها المتميزة الخاصة . ان الشيء المشترك بين الجسد الفردي وبين المجتمع هو أن العلاقات القائمة بين خلايا الجسم الانساني هي علاقات اقتصادية مع ما ينطوي ذلك عليه من تقسيم للعمل ، والاشراف المركزي ، وتبادل المنتوجات وما اليها . ان الفرد يخضع مصالحه ، عند اللزوم ، لما يتطلبه صالح المجموع . وكما يتم في جميع العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية تستطيع الخلايا أن تحقق أكثر عندما تعمل بشكل جماعي ومنسق مما لو عملت كل على حدة . غير أن الجسم يخضع لقوانين البيولوجيا في حين يكون المجتمع خاضعا للقوانين السوسيولوجية .

تظهر الخلايا الجنسية على المسرح عند البلوغ (سن

الرشد) بعد أن يكـون الجسم العضوي قد قضى ردحـا طويلا نسبيا من الزمن بوصفه كيانـا اجتماعيا . فالجنس لذلك نـوع من الكماليات يظهر في وقت متأخر بوصفه تعديلا خاصا للعلاقات الاجتمـاعية ـ الاقتصـادية . **ان الحب الجنسي ليس الا علاقـة اقتصادية معدّلة** . ومـا الغيرية ، على سبيل المثال ، الا نتاج رؤية المـرء لذاتـه في الشخص المحبوب عندمـا يجري التعبير عنهـا اجتماعيا ، وهي لذلـك ليست الا شكلا خاصا من الحب الجنسي كما يقترح فرويـد . ان الغيرية في صيغتها البدائية والاسـاسية التي تتجلى في قيام المرء بالتضحية بنفسـه في سبيل الآخرين تظهر الى الوجـود قبل الحب الجنسي بأمـد طويل كجزء مـن عملية الاستقلاب الاقتصادية في خلايـا الجسم الانساني دون أن تكون لهـا أية عـلاقة بالجنس . غير أن الغيريـة الواعية عند الكـائن الانساني ليست فقط مجرد « التضحية بالنفس » اللاشعوريـة عند الكرية البيضاء . انها نوعية جديدة تستند الى كمية قديمة . والحب الجنسي نوعية جديدة متميزة عن العلاقـات الاجتماعية ـ الاقتصادية الاكثر بساطة والتي سبقته .

والتميز ينطوي على الاختلاف . وعلى الرغم من أن الحب الجنسي ، بوصفه تطورا لاحقا لعلاقـات اجتماعية ـ اقتصادية ينطوي في داخله على صفات متبقية من أسـاسه ، فـانه يحتوي بالاضافة الى تلـك الصفات على شـيء جديـد ومميز . فالحب الجنسي ليس ترفـا يعيش لذاته فقط بل يعود ثـانية ليصبح علاقـات اجتماعية مرة أخرى مع جعل هذه العلاقات الاجتماعية مختلفة عما كانت عليه . ومن خـلال تغيرها فان هذه العلاقـات بدورها تقدم المزيد من الغـذاء الاكثر غنى لهذا الشيء الجديـد الذي يمـد جذوره عميقا في داخلها . ان كلا مـن الطرفين يلقي الضوء على الطرف المقابل اذ من الواضح أن الحب الجنسي الذي هو سلسلة مـن الاستجابـات أو ردود الفعل النخاعية الشوكية

البسيطة في الاســـاس ، كما يتضح من التجارب التي أجريت على الخنازير الغينية بعـد نزع النخاع الشوكي منها ، قـد اجتذب لــدى البشر جملة من العلاقـات الاقتصادية التي اغتنى بهــا . فعملية الجماع الجنسي لا تستتبع التورط في مثل هذه العلاقــات المتشابكة بالضرورة ، وهي لـم تتطلب ذلك في العضويات الادنى . ولا حاجة للربط بين الجماع الجنسي وبين العلاقات المرتبطة بتنشئة الصغار وتربيتهم ، كتلك القائمة في الحياة العائلية البشرية ، ولا بينه وبين العلاقـات المرتبطة بكسب القوت وتأمين المأوى ، وتوفير الاصدقاء ، كما في الزواج البشري . ولكنه ، بسبب كونه كثير التشابك ، يغـدو شبيها بمنبع للـدفء يلقي بنوره على هــذه العلاقــات التي تتحول بدورهــا الى نــوع من المحروقــات التي تغذيه وتحقق غناه ونماءه . وجملة الجماع الجنسي مع كل هــذه العلاقات تؤلف منظومة معقدة هي جزء من نسـيج المجتمع ، والنمط الاغنى الناتج عن التشابك والتناسج المتبادل يشير الى أن المفهوم الفرويدي للعلاقــات الاجتماعية بوصفها حبا جنسيا معـدلا انما يعكس عملية الصيرورة ويقلبها رأســا على عقب .

كــان لتطور الجنس مغزى عميقا وأهمية كبيرة في تــاريخ الكائنات العضوية . فعلاقــات الاستقلاب البدائية مثل تلك التي تجري فيما بين الخلايــا لتكوين أجسام متعددة الخلايــا موصوفة بشمولية (توتــاليتارية) لا ترحم حيث ينعدم وجود الفرد بوصفه فردا . ان الخلية الفرد تكــون خاضعة خضوعــا كاملا للعضوية ككل . هذه هي الحــالة بالضرورة لأن الخلية لـم تصبح بعــد فرداً لــه كيانه بل انها لا تزال جزءا من الخلية الام أصبحت متميزة ومبعدة . وذلــك ينطوي على وجود شبه تــام بالخلية الام الــى درجة أن مثل هذه الخلايــا طوال استمرارها في القــدرة على الانشطار تمتلك نوعــا من الخلود ، فالابناء يكونون مماثلين تمامــا تقريبا للآبــاء . ومن الصعب أيضا بالنسبة للخلايــا الجديدة ،

بالمقابل ، أن تتواجد . جيل بعد جيل يكرر النمط نفسه . وكل العيوب يعاد انتاجها . فبما أن الخلية الجدة أكلت حصرما لا بد ، لذلك ، من أن يضرس الاحفاد بالضرورة .

ان ظهور الجنس يحطم الروتين البالي للعادة . فهو لذلك أصل الفردية أو الفرادة في اطار دائرة المجتمع . ان شيئا متميزا في جدته يبرز على المسرح لأن الابن (الطفل الوليد) لن يكون بعد الآن لأي من الابوين تماما بل سيكون من خلال جمعه لنخبة من الجينات من الاثنين كليهما شخصا مختلفا عن الاثنين . أضف الى ذلك أن كل طفل ، بفضل حصوله على نخبة مختلفة من الجينات ، سيكون مختلفا اختلافا بسيطا مما يؤدي الى اقتلاع الصفات السلبية أو العيوب عن طريق الانتقاء الطبيعي . فلن يضرس كل الابناء ! ومدى التنوع في المواصفات بين الابناء والاحفاد سيزداد اتساعا . صحيح أن البعض سيكونون أسوأ بكثير من خلائف الامهات الخنثوات لأن هؤلاء البعض سيجمعون عيوب الابوين كليهما ، ولكن البعض الآخر سيكونون أفضل ، فضلا عن أن الانتقاء الطبيعي سيجد نفسه أمام مدى أوسع من الخيارات لينتقي من بينها . ويبدو كما لو أن الخير انما أتى الى العالم من خلال تكاثر الشر ، أولا يؤكد ذلك واقع وحدة الاضداد اذا ما أخذناها بصورة جدية ؟

وفي الوقت نفسه ظهر الموت على المسرح العالمي . فالحب الذي هو منبع الفرادة أو الفردية هو نفسه منبع الموت ، نقيض الشخصية . ذلك هو السبب الكامن وراء كون كل من غريزة الحياة وغريزة الموت ، ايروس وتاناتوس ، تبدو وثيقة الارتباط والتوحد احداها مع الاخرى ، لا لأنهما غريزتين خاصتين كما قال فرويد بل لأن الموت هو الذي يحدد الحب . فخلود الخلايا البدائية المضمون عن طريق الانشطار البسيط يتلاشى مع تزاوج هذه الخلايا وتناسلها . ان الآباء والامهات لا يعيشون في أبنائهم

وبناتهم وأحفادهم الا بطريقة موقتة ومترددة .

ان هذا نوع من الثمن الذي تدفعه الحياة حتى تحقق المزيد من الاختلاف والتنوع حتى تصبح حياة كالتي نفهمها. فمن أجل المزيد من الغنى والتعقيد ، ولدفع يد الزمن ، ندفع نقد الموت الذي لا يثمَّن . ان الخلايا الفردية قادرة لأن تعطي لأبنائها ، الذين لم يعودوا مجرد براعم مماثلة لها ، حياة أكثر وفرة وأشد تميزا ولكن عبر منحهم نصف جيناتها فقط وعبر تخليها بالتالي عن خلودها . ولا يستطيع المرء أن يتحدث عن « الشخصيات » و « الافراد » الا مع هذا الحضور لكل من الحب الجنسي والموت الحقيقي ؛ أما الخلايا الاخرى فتبقى مجرد براعم . فميلاد شخصية جديدة يتطلب موت الشخصية القديمة . وهذا « الانا » الذي يموت انما يخلقه الموت .

من حيث مظهره يكون الحب الجنسي ، على اي حال ، أنانيا . فالخلايا الجنسية ترفض الروابط الاجتماعية والجماعية لاعادة الانتاج المخنثة لصالح روابط شاملة وحميمة تقوم بين اثنتين منها . وهي خلايا كمالية لا تلعب أي دور في الانتاج الاقتصادي للجسم العضوي . وبالمثل فان للحب الجنسي في الحياة الاجتماعية جانبا أنانيا . فالعشاق يتحاشون الجماعة ؛ وهم يطلبون العزلة والوحدة ، وكل اثنين يريدان أن يكونا وحدهما ليستمتع كل منهما بالآخر . وهكذا فان الحب الجنسي يبدو كقوة تحلل وتفكك في المجتمع .

ان الخلية الاجتماعية المخنثة خاضعة بشكل صارم لخطة العضوية . فهي تعمل دون كلل في الخفاء أو متذبذبة أو متعرضة للموت لصالح الجماعة . والى جانبها تبدو الخلية الجنسية ، في اطار الجماعة ، مثل الاناني الذي يعبد اللذة مقابل الاعزب النشيط والمتفاني . ان الخلية الجنسية تستجيب بكل كيانها لشيء يغري بمجرد الاشباع الذي يحققه الفرد . وحتى في جانبه

الذي يجسد اعتبار الآخر فـان الحب يظهر كما لو كـان نوعـا من الانـانية العملاقة المسقطة على المحبوب . غير أن هذا لا يكشف كل الحقيقة . فهذه الخلية الانـانية بالذات تولد شيئا لـم يكن معروفـا من قبل ألا وهو : الفردية أو الفرادة ـ الفرد . ان الخلية التي تتحرر موقتا من الاطـار الفولاذي للاستقلاب العضوي عـن طريق اختراع الجنس تزداد غنى سلوكيا من خـلال هذه العملية . انها بداية التفرد الـذي يقود الانسان الـى الوعي . ان السلوك الجنسي يجلب الى الحياة نمطا جديدا . فالخلايـا الجنسية هي من جهة تصل الى اغناء وزيـادة تعقيد ذواتها عبر تجاهل متطلبات المجتمع . والاكثر أهمية هو أن هذه الشراكة الجنسية تنطوي ، تلقـائيا ، على اعـدام الشخصيتين كليهما من جراء ولادة الافراد الجدد الذين تتشكل شخصياتهم ومواصفاتهم المميزة مـن جملة منتقاة من جينات (صبغيات) الابوين وبالتالي يكونون مختلفين عن الاثنين . تتمتع الخلية المتفانية بامكـانية الخلود الابدي مكافأة لها على نكرانها للذات . أمـا الخلية الجنسية فتشتري سـاعتها الموجزة من الحياة المجيدة (حياة المجـد واللذة) مقابل تخليها عن عمر بدون اسم ، غير أنهـا من خـلال ذلك الموت وتلـك الحياة بالذات تعطي الوجود وامكانية البروز لطاقات الفردية أو الفرادة .

الا أن هذه ، على أية حـال ، طريقة أنتروبو مورفيه فـي النظر الى المسألة . فطوال فترة هيمنة الجنس يستحيل الحديث عن الفردية والفرادة بشكل مطلق . هل أوراق هذه الشجرة أو تلـك فردية ؟ لا ، انها أجزاء من شجرة واحـدة . وبنفس الطريقة تكون خلايـا الجسد متعدد الخلايـا جميعا أجزاء مكملة لبعضها وان كـانت منفصلة مكـانيا . وقد تولـدت عن بعضها عن طريق الانشطار . وهذا يمنع اثـارة أي مـن مسألتي التفاني ونكـران الذات أو الخلود الابدي . فالخلية الخنثوية لا تمتلك « ذاتـاً » تضحي بها كما أن الخلود لا معنى لـه الا اذا حمل معنى أن كل

مـــادة خالدة . ان الخلود يبقى عديم المعنى بدون الخلود **الشخصي** Personal ، والخلية الخنثوية عديمة الشخصية .

ليس الخلود نوعـــا أعلى من أنواع الموت (اللاخلود) ، حياة ممدودة الى اللانهاية ، بقـــاء شخصي لانهائي . انه الحالة البدائية التي انبثقت منها حالتا اللاخلود (الفناء) والشخصية . فاذا كان مفهوم الحياة في نظرنـــا عديم المعنى تقريبا الا اذا كانت حياة لهذا الفرد أو ذاك ، فـــان علينا أن نقول بـــأن الموت هو الذي أوجـــد الحياة ؛ فكلاهما : الحياة والموت جانبان من حركة التمايز ذاتها . ان كـــل المساعي المنصبة على تحقيق الخلـــود ، رغم انسانيتها الواضحة ورغم كونها مفهومة تمامـــا ، ما هي الا مساع مـــن أجل النكوص ، من أجل العودة القهقرى الى الكيان البدائي اللاشعوري (اللاواعي) ، من أجل التهرب من المسؤوليات الثقيلة المرتبة على وعينا وحبنا وفرديتنا أو تفردنـــا . فكل مفاهيم الخلود بوصفه أشكـــالا لا متناهية من بقـــاء الشخصيات المتحركة فـــي أجواء وبيئات مألوفة تصدم العقل بمعنى غريب من معـــاني اللاواقعية . والمفاهيم الوحيدة التي تبدو معقولـــة عـــن الخلود ، مهما كـــانت مستحيلة ، هي تلك المفـــاهيم البوذية والهندية عن هذا الخلـــود بوصفه اندماجـــا وذوبانـــا لذات الفرد في المطلق ، في النيرفانـــا ، ذلـــك النوم البدائي للاوجود . وهذا هو الخلود ، انـــه العودة الى النكوص الاعمى اللاواعي (اللاشعوري) للكينونة البدائية ، والى مـــا هو أبعد من ذلـــك حيث خلود المـــادة مع انعدام الزمن . ذلك لأن الحياة ، اذا مـــا ووجهت بأية عقبة يصعب تجاوزها ، تميل الى تمني الانتكاس نحو حل سبق العثور عليه فيما مضى ، في مرحلة ســـابقة من مراحل التطور ، وهذا المفهوم للخلود يدغدغ الانسان وخـــاصة في فترات الدونية والركود .

ان مثل هذا الاهتمام بالخلود ليس في كثير منه خوفـــا من الموت بوصفه نوعـــا خاصا من اللجوء الانهزامي ، كما في عبادات

مصر والشرق الخرافية . فالايمان **المهزوز** ، أو **الكفر التام** بالخلود ، بعيدا جـدا عن أن يؤدي الى نوع مـن اللجوء الى الموت ، ينتج بالضرورة كرهـا نشطا لـه . فكل الناس المهزومـين والمقهورين والمتعرضين للارهاب ، وكل الطبقات المستعبدة والمنزوعة ملكيتها ، تتوجه نحـو حياة أخرى خـالدة دون زمن سبيلا للعـزاء . ان الخلود البيولوجي يولد ، عن طريق الانشطار الى الشخصية مـن جهة والموت مـن جهة ثـانية ، نقيضين كل منهما يـدرأ الآخر ويكبحه ؛ فبمقدار مـا تكون حياتنا ممتلئة وغنية يكـون تعرضنا لعملية الدرأ والكبح عن طريق الموت أشـد ؛ ويكون هذا الكبح أو الـدرء ، رغم ايلامه الشديد ، مصدراً لانتاج المتعة واللـذة لأنه يضطرنـا لأن نحشو حياتنا المثمنة الآن بالمزيـد من الغنى والثراء والتعقيد ، ولأن نمسك بأكبر قـدر من الزمان والفعل ، لأن ننجز ونهزم ونحب ونعـاني قبل أن نموت . ان الموت الـذي هو نفي الحياة يولّد هذه الاخيرة كما نـرى . فكل مباهج الربيع ، وكل عناصر الشباب ، وكل امـارات الصحة لا تقـدم نكهتها ومذاقها الخاص والغني الا لهذا السبب ، الا لأنهـا ذاهبة ، زائلة :

ما أكثر مـا أسمع خلف ظهري
ضجيج عربة الزمن المجنحة مسرعة في الاقتراب .

— — — — — — — — — — —

يتميز المجتمع الانساني عـن مجتمع الاستقـلاب البسيط للخلايا الجسدية لأنه أكثر من الاستقلاب ، فهو فردي أو افرادوي اضافة الى ذلـك . فالفرد ، رغم معارضته الظاهرية للمجتمع ، يعطي لهذا المجتمع مع ذلك قوته المحركة الداخلية ، كما أن المجتمع من خلال تطوره الداخلي بالذات يسعى لتحقيق فرادة أو فرديـة الوحـدات المؤلّفة لـه .

ان مجتمع الحشرات يتناقض في هـذا الميـدان مع المجتمع

الانساني ، حيث حصل نكوص نحو خلود نسبي . فالعمال جميعا نزعت منهم الجنس مما أفقدهم فرادتهم حتى نكصوا الى وضعية الخلايا الجسدية تقريبا . ان الوفاق الغريب بين عناصر خلية النحل أو قرية النمل لا يثير الدهشة والاستغراب عندما نراها جميعا تقريبا كأجزاء الجسد واحد ، خلايا بنات للملكة . غير أن هذا النكوص ونزع الفردية أو الفرادة بالذات يؤديان الى الركود بالمقارنة مع المجتمع الانساني. وكل قوى التغيير والفرادة أو الفردية تتركز على التغيير الحاصل في بضعة أعضاء جنسية قليلة. وهو لذلك تغيير بطيء. ان مجتمعات الحشرات تكاد تتوقف عن الحياة ، بعيدا عن يد الزمان المتغير رغم أن حياتها حققت نوعا من الخلود الباهت الشبيه بخلود الماس .

ان الحرب اللانهائية في المجتمع البشري بين العلاقات الفردية والعلاقات الاقتصادية ، بين الحب والاستقلاب هي ، على أي حال ، منبع التقدم الاجتماعي اللانهائي . والجنس ، نظراً لأنه أوجد الفردية أو الفرادة ، قد ساعد أيضا على ظهور الوعي . يتبدل الاستقلاب (أو القوى المنتجة) من عصر الى عصر ، وهذا التبدل يؤزم العلاقات الانتاجية . ولكن هذا الصراع الشامل لكل المجتمع يتجلى بشكل متميز في ساحة شعور الانسان ، في وعيه ، لأن الوعي أساسا فعال ومؤثر . ان هذا الصراع يبدو كما لو كان سعيا من جانب قوى خارجية في المجتمع من أجل قمع حياة الناس العاطفية ، يبدو كما لو كان دليلا على أن الحياة تغدو قاسية أو دونما بريق . ذلك لأن العلاقات الانتاجية هي علاقات اجتماعية وهي التي تولد المودة والرقة الواعيتين .

ان الحب الجنسي بالذات يغتني ويتبدل باستمرار بسبب العلاقات الاقتصادية وفي الوقت نفسه تكتسب هذه العلاقات الاقتصادية دفئاً وتعقيدا جديدين من الحب . وكل مرحلة من مراحل التطور الاقتصادي يقابل نمطاً سلوكيا أغنى وأذكى وأكثر

حساسية مرتبطا بالحب الجنسي . فالحب العاطفي يعود الى الثقافة البرجوازية ، في حين أن الحب الرومنطيقي والفروسي يتناسب مع الاقطاع ؛ أما الثقافة اليونانية المستندة الى ملكية العبيد فقد أنتجت الحب الافلاطوني .

وفي عصرنا هذا يبدو الارتباط بين العلاقات الاقتصادية من جهة والحب الجنسي من جهة ثانية تعسفيا ، لا لأن فكرتنا عن الحب زائدة الغنى بل لأن نظرتنا الى العلاقات الاقتصادية غارقة في البحر البرجوازي . لقد أدت المدنية البرجوازية الى تحويل العلاقات الاجتماعية الى روابط نقدية (نسبة الى النقد) ، بعد افراغها من كل حنان . ان كل العالم يبدو وكأنه يعاني من الجوع الى الحب في نظر عالم النفس ، وتتجلى هذه الحاجة بشكل تعويضي أو مرضي في كل من العصاب والكراهية والشذوذ والقلق .

وحتى يومنا هذا نستطيع ، في تلك العلاقات الاقتصادية التي لا تزال محافظة على أشكالها ما قبل الرأسمالية ، أن نلمس المودة كأساس للعلاقة وجوهر له . فتأليه السلعة الذي لا يرى في العلاقة بين **الناس** الا علاقة بين **الاشياء** لم يستطع بعد أن يجفف تلك العلاقة بصورة كاملة . ان العلاقة الاقتصادية التي تربط الام بجنينها ، والطفل بوالديه **أو العكس** تحتفظ بشكلها البدائي لاثبات ما ذهبنا اليه بوضوح . ونستطيع أن نلمس آثارا أخف وأضعف في العلاقة بين الاستاذ والتلميذ ، بين المربية والطفل ، بين الخادمة أو الخادم في البيت أو صاحبته ، وفي بعض الامثلة القليلة المتبقية من العلاقة الاقطاعية بين السيد ورجاله .

فأين يمكننا أن نعثر على ما يشبه تلك المودة في العلاقات البرجوازية بطبيعتها التي توفرها ثقافتنا بدلا منها — في علاقات الرأسمالي بالعمال ؛ صانع الفندق بالزبون ؛ مؤسس الشركة بأصحاب الاسهم . . . الخ ؟ هذه المودة المطرودة من سائر العلاقات

الاخرى جميعا تجمع اليوم لتستخدم بأسلوب ضبابي غيبي بوصفها القوة الرابطة لتلك العلاقة الاجتماعية الوحيدة المستندة الى « أن يكـون المرء في وضع شبيه بوضع الآخر الذي يرتبط به » . ان هذه العلاقة علاقة اجتماعية أصيلة تستند الى التعرض لنسيج كامل من القسر والاستغلال من قبل طبقة حـاكمة واحدة ، غير أنها ليست من ذلـك النوع الذي يحتمل أن يكـون منتجا المودة والرقة ، ولذلك فـان من الضروري استبدال العلاقة العـارية بعلاقة وهمية ـ « عرق » وهمي ، أسرة سعيدة رائعة أو ملـك أو قـائد دمية تكون حكمته ودهاؤه في السياسة وشخصيته نصف سماوية ، حتى حيث يكون هذا الوضع مطابقا دستوريـا لوضع الخاتم المطاطي . وعن هذا الطريق يجري تأمين « وهم بالمشاركة » قوي ، بل وبالغ القوة . وكما تبين الفاشية والنازية فبمقدار مـا تكون أشكال الاستغلال فظة وقـاسية ، تكون الوطنية أكثر حماسا ولاهوتيا ميثولوجياً ؛ بمقدار مـا تكون العلاقات خلوا من القلب والعواطف ، يكـون استعراض المشاعر المنافق أكثر وأشمل . ان هذا هو مـا يميز العلاقات البرجوازية المتطورة . ففي العلاقـات البدائية في جماعة مـا ، كما يبين بـاحثو علم الاجناس البشرية (الانتروبولوجيا) ، يكون الانتاج الاقتصادي متداخلا بشكل كامل مع الحنان الاجتمـاعي . وتتجسد العلاقة الاقتصادية فيمـا بين القبائل ، بين الزعيم والتابع ، أو بين مختلف أعضاء الجماعة فـي تبادل الهدايـا دليلا على المودة بالمعنى الحرفي للكلمة . انه الحب المترافق مع الهدايـا ، الحب الذي يعطي ، ذلـك الذي يشكل الشيء الاقتصادي الحيوي . ان العديد من المعـاملات البدائية التي بدت المراقب البرجوازي الاول كما لو كانت مبادلات برجوازية ، أي كما لو كانت مستهدفة الحصول على أكبر قـدر ممكن مقـابل أصغر قـدر ممكن ، هي الآن ، كما اكتشفها مراقبون أعمق بحثاً ، على النقيض تماما ؛ فكل فريق انما يحـاول احراق الفريق المقابل

عن طريق اغراقه بالمزيد والمزيد من الهدايا . ان مصدر فخر الميلانيزي هو كونه قدم عددا كبيرا من رؤوس أغنام اليام الى خاله أو زعيمه من أي شخص آخر . ويستعرض الهندي الاحمر من أميركا الشمالية قدره الاجتماعي أثناء الوليمة عن طريق افقاره لنفسه . وهذا المفهوم للعلاقة الاقتصادية بوصفها علاقة محبة وود ، ووسيلة مناسبة للتعبير عن الكرم والغيرية ، يظهر في العلاقات البربرية لا بل وفي العلاقات الاقطاعية . فعلينا ألا ننظر اليها نظرة مثالية كما علينا ألا نتصور بأن المودة الوحشية البسيطة هي نفس العاطفة الاكثر تطورا وذكاء وتعقيدا التي نحس بها . الا أنه من الخطأ المماثل أيضا أن نقوم بلوي أعناق الوقائع وتشويهها بغية اعطاء تفسير برجوازي مضحك لسائر العلاقات الاقتصادية البدائية المختلفة في كل من الزراعة والصيد وحيازة الارض عند الاقوام الافريقية والاميركية والاوقيانوسية البدائية .

في كل العلاقات البرجوازية المتميزة من المعروف أن الود مطرود تماما ، لأن المودة لا يمكن لها أن تقوم الا بين الانسان والانسان ، وفي الرأسمالية تبدو جميع العلاقات على أنها قائمة بين الانسان والسلعة .

ان العلاقة بين شيخ الكار (رئيس الرابطة الحرفية) والحرفي ، بين مالك العبيد في المزرعة والعبد ، بين السيد والقن ، بين الملك ورعيته ؛ هذه العلاقة كانت علاقة بين انسان وانسان ، ورغم أنها لم تكن علاقة تعاون بل علاقة هيمنة واخضاع ، علاقة مستثمِر بمستثمَر ، فقد كانت علاقة انسانية . لقد كانت لسوء الحظ علاقة شبيهة بتلك التي تقوم بين رجل وكلبه ، غير أنها كانت ودية على الاقل . فكيف يمكن حتى لهذا القدر من الاعتبار أن يدخل في علاقات جماعة من مالكي الاسهم أزاء مستخدمي شركة مساهمة مغفلة ؟ أو بين العتالين الهنود وشاربي الشاي البريطانيين ؟ أو بين البيروقراطية البرجوازية

والبروليتاريـا ؟

في نطـاق العلاقات البرجوازية يشكل العقد المعتبر قـابلا للالغاء بغرامة مالية العلاقة الشرعية الوحيدة المعترف بهـا بين البالغين . فما من شـيء يمكن فرضه على كائن من كان بالقوة الا دفع المـال ؛ وحتى الزواج نفسه يمكن الهروب منه عن طريق دفع مبلغ مناسب من المـال . والانسان حر حرية مطلقة الا فيما يتعلق بدفع المـال . تلك هي الطبيعة الخارجية أو الظاهرة للعلاقـات البرجوازية . أمـا في الاعماق والخبايـا فهي خلاف ذلـك لأن المجتمع لا يمكن أن يكـون الا علاقة بين الانسان والانسان ، وليس بين الانسان والاشياء ولو بين الانسان والنقد (المال) . ان المجتمع البرجوازي يظن بـأن تلك هي العلاقة التي يدور حولها ، غير أنها ، وكما أوضح ماركس ، لا تزال عـلاقة بين الناس حتى في المجتمع البرجوازي ، انها عـلاقة بين المستغِلين والمستغَلين . انها قناة للاستغلال من نمط خـاص . ويتركز الحلم البرجوازي على أن استبدال تلك العلاقـات الاقطاعية والعبودية البدائية التي كانت قـائمة بين الناس بهذه العلاقة القائمة مع الاشياء يؤدي الى أن يصبح الانسان كامل الحرية . غير أن هذا الحلم لا يعـدو كونه وهماً باطلا . ونظراً لأن الانسان لا يصبح حرا الا من خلال العلاقات الاجتماعية ، فـان هـذا يعني أن البرجوازي يغمض عينيه ازاء الوقائع ، لأن العلاقـات الاجتماعية غير الواعية وغير المخططة التي تعمل بشكل أعمى ومدمر مثلها مثل كل القوى اللاواعية تحل محل العلاقـات الاجتماعية الواعية والمخططة .

ومهما يكن من أمر فـان البرجوازي كان مصمما على الاعتقاد بأن السوق هي العلاقة الاجتماعية الوحيدة بين الانسان والانسان. وكان ذلـك يعني أن عليه أن يؤمن بـأن الحب جزء لا يتجزأ مـن العلاقـات الاجتماعية . فقـد كبح هذه المودة من خـلال وعيه الاجتماعي . وفي الشكل الاخير يغـدو ذلك الخيانة التي يتعرض

لها المرء من جانب طاقته للحب ، وظهور الحب بمظاهر العصاب والكراهية والوهم ، هذه المظاهر التي يكتشفها المحللون النفسيون في كل زاوية من زوايا الانسان البرجوازي . وبمعنى ما كان قانون ملكية المرأة المتزوجة وثيقة تجسد حرية النساء . ولكن هذا القانون بالذات كان ، بمعنى آخر ، مجرد وثيقة تجسد القهر البرجوازي ، واعترافاً بأن العلاقات الاقتصادية بين الزوج والزوجة لم تعد مفعمة بالمودة والحب بل أصبحت مجرد نقد « كاش » Cash .

ان العلاقات البرجوازية تعطي ، في مراحلها المبكرة ، ومن خلال التركيز على زيادة حدة الفردية أو الفرادة ، تصعيدا خاصا للحب الجنسي . فقبل أن تتبلور العلاقات الاجتماعية البرجوازية كعلاقات مالية نقدية تبدو ببساطة كما لو كانت تعبر عن طلب الانسان للتحرر من القيود الاجتماعية العقيمة ، مما يجعل مثل هذه المطالبة بالفردية في ذلك الحين قوة تقدمية . ويرتدي الحب الجنسي ، كما نرى بوضوح في الفن ، قيمة خاصة بوصفه تعبيرا بالامتياز par excellence عن الفردية . فنحن لدينا ذلك البروز لما أنجزته الثقافة البرجوازية بصورة متميزة ، لدينا الحب العاطفي المأخوذ على أنه رومنطيقي وحسي في وقت معا ، في حين أن كلا من الثقافتين الاغريقية والقروسطية لم تستطع أن ترى في الحب الرومنطيقي والحب الحسي الا نقيضين متناقضين تمام التناقض . ان الحب العاطفي يضيف ألحانا جديدة لكل من عالم الحس والحياة الواعية . أضف الى ذلك أن هذه المطالبة بالفردية كانت باعثة على اثراء أنماط أخرى من الحب طوال فترة بقائها ثورية وخلاقة . فقد منحت الناس مودة جديدة فيما بينهم أخذت شكل المودة والتعلق بحرية بعضهم بعضا ، بقيمة كل منهم الشخصية في نظر الآخرين . لقد أنجبت الثقافة البرجوازية في عهد شبابها (خلال ربيعها) الحب الجنسي العاطفي ، والمودة ازاء

« الحرية » ـ في اطارها الفردي ـ لسائر أعضاء المجتمع . وما هاتان الاضافتان الا شكلين من الاغناء لا تستطيع الحضارة اليوم أن تفقدهما .

ولكن التناقض الكائن في قلب العلاقات الاجتماعية البرجوازية والذي يتجسد في كون المصلحة الخاصة فجيعة عامة ، وفي أن البحث عن الحرية يتم فرديا وبصورة تعادي المجتمع ، قد كشف بالضرورة عن طبيعته في الوقت المناسب . ان الانسان لا يستطيع أن يعيش دون ان تكون له شبكة من العلاقات مع الناس الآخرين ويطالبه البرجوازي بأن يقيم مثل هذه العلاقات بحيث لا تعني الا علاقات بالاشياء مموهة . وعندما أنتجت هذه العلاقات المتطورة الرأسمالية الصناعية والدولة البرجوازية العصرية فقد امتصت كل المودة والحب من جميع العلاقات الاجتماعية . وفي الحدود القصوى أثّرت حتى على الحب الجنسي بالذات وبدأت تنتزع منه شكلي الغنى اللذين استمدهما هذا الحب الجنسي من العلاقات الاجتماعية الودية . ان الحب العاطفي البرجوازي هو اليوم أشبه بوردة يجري انتزاع أوراق تويجها وكأسها ورقة بعد ورقة . ان هذه الاوراق هي التي تجسد أنماط السلوك المستنبطة من العلاقات الاجتماعية البرجوازية التي سبق لها أن نقلت الى ساحة الحب الجنسي حيث تحولت واكتسبت شيئا من الدفء ، مثلما تكون أوراق التويج الملونة مؤلفة من أوراق خضراء منقلبة . وفي مؤسسة الزواج البرجوازي كانت هذه العلاقات ـ الاسرة **الفردية** ، والدخل **الشخصي** ـ قد اكتسبت الحرارة من الحب الجنسي حتى غدت شيئا نبيلا . صحيح أن العلاقات الاجتماعية البرجوازية ، حتى عندما تكون متحولة كما رأينا ، حافظت على بعض من طبيعتها البشعة وغير الودية . فالمرء كثيرا ما ينظر الى الحب على أنه علاقة ملكية برجوازية ، علاقة بين شخص وشيء ، وليست علاقة بين انسان وانسان

آخر . فالزوجة ملكية تخصه مدى الحياة . وعليها أن تكون جميلة لاشباع غرائزه التملكية ؛ وأن تكون وفية لأن ملكية الانسان يجب ألا تتغرب عنه ؛ أما هو ، أي المالك ، فيمكنه ألا يكون وفياً ، لأنه قادر على حيازة ملكية أخرى دون أن يؤثر ذلك على حيازته الحالية . ان علاقة مماثلة فرضت نفسها على الاطفال الذين سبق له أن أطعمهم وكساهم ، ولذلك دفع أجورهم . فقد باعوا قوة عملهم له . ففي حضارة روما العبودية يظهر الوضع القانوني للابن شبيها بوضع العبد بالنسبة للأب ، بل ويظهر عبداً لا ينتظر الانعتاق . ولكن حتى العبودية تبقى علاقة بين البشر . أما هذه السمات التملكية البشعة للعلاقات الاجتماعية البرجوازية فقد أعطت دوما الحب البرجوازي لحنا خفيا من الغيرة الانانية ، تعتبره البرجوازية ، رغم أنف الابحاث الانتروبولوجية ، غريزيا وطبيعيا . ليست البرجوازية هي التي اخترعت الملكية الخاصة . فهذه الملكية الخاصة ذات جذور عميقة في كيان الانسان والا فلما ظهرت اطلاقا في عهد البرجوازية . الا أن البرجوازية شهدت ازدهارها وتعاظمها حتى غدت القوة المحركة الرئيسية للعلاقات الاجتماعية ؛ وبالتالي فان نكهتها تطغى على كل ما له علاقة بالحياة البرجوازية .

فمع تلاشي العلاقات الاجتماعية البرجوازية يبدأ الحب العاطفي البرجوازي هو الآخر بالذبول في وجه العاصفة الاقتصادية . فمن جهة أصبح الزواج كثير « الاكلاف » ولا بد من تأجيله الى وقت متأخر من العمر . وذلك الزواج ليس اليوم الا نمطا متأخرا وخاصا من أنماط سلوك الحب ـ بعد أن كان في نظر الثقافة البرجوازية وخاصة بالنسبة للمرأة أكثر أنماط سلوك الحب قيمة . والاطفال تزيد « كلفتهم » مع الزمن ، والعلاقات الاجتماعية الودية المرتبطة بهم قلما تشكل جزءا من نمط الزواج الاعتيادي . لكل هذه الاسباب ، ولغيرها فان ذلك المخلوق المعقد

والمحكم ، الحب العاطفي البرجوازي يتعرى أكثر فأكثر من حلته لينقلب الى شكله البدائي الذي هو الجماع الجنسي العابر والسريع. وتجري ادانة ذلك النتاج الحتمي لنضوب العلاقات الاجتماعية البرجوازية على أنه « معصية ـ خطيئة ـ ذنب » و « طيش الشباب » و « تدمير مؤسسة الزواج » و « ازدياد العبث » و « هذا من نتائج تحديد النسل » وما الى ذلك . . . غير أن كل هذه الادانة تبقى بجانب النقطة دون اصابتها . فقد حفر الحب البرجوازي قبره بيده هو في الحقيقة . ونفس الاسباب التي أدت الى ازدهاره عبر الزمن هي التي جلبت له الذبول والموت الآن .

يستطيع الحب اليوم أن يعد وثيقة اتهام مروعة تتضمن الاخطاء وأشكال الحرمان التي مارستها العلاقات الاجتماعية البرجوازية ضده . ان بؤس العالم اقتصادي غير أن ذلك لا يعني انه نقدي (مالي) . تلك خطيئة برجوازية . فالعلاقات الاجتماعية لأنها اقتصادية بالذات تنطوي على أطيب المشاعر الودية وأثمنها بالنسبة للانسان الاجتماعي . ولاشباع سائر الطاقات العاطفية الفنية والود الاجتماعي التي حرمته منها العلاقات البرجوازية يتوجه الانسان عبثاً نحو الدين والحقد والوطنية والفاشية ونحو عاطفية الافلام والروايات التي تصور في الخيال أشكالا من الحب لا يستطيع ممارستها في الحياة ، وهو لذلك عصابي ، حزين ، مريض ، معرض للحقد الجماهيري على الحرب واللاسامية ، ولمهرجان ملكي عابث ولكنه مرضي للجنائز الحماسية والولاءات المستحيلة المجنونة لهتلر ولمن لف لفه وللجدات الآريات . ولكل هذا تبدو الحياة له فارغة ، مهترئة ولا فائدة منها . ولكل هذا فهو ليس سعيدا بالانسان الرجل ولا بالانسان المرأة !

ان العلاقات الاجتماعية البرجوازية ، عبر تحويلها بهذه الطريقة كل العلاقات الودية بين الناس الى علاقات بين الناس والسلع ، انما تقوم بحفر قبرها بيدها ، تحكم على نفسها بالاعدام.

فالخيوط التي تربط السيد الاقطاعي بالمولى ، والزعيم بالقبيلة ، والابوي بالعبد البيتي ، والاب بالابن انما تستمد قوتها من كونها ودية . أما الخيوط التي تربط صاحب الاسهم بالمستخدم المأجور ، والموظف المدني بدافع الضرائب، وكل الناس بالسوق اللاشخصية ، فهي ، بسبب كونها نقدية فقط وخالية من العلاقة الاجتماعية ، عاجزة عن البقاء والاستمرار . ان قوانين الزعيم قابلة لأن تفهم . فالفرمان الصادر عن رجل مؤله لا يزال أمرا شخصيا وعاطفيا . أما قوانين العرض والطلب (وبدائلها في الثقافة البرجوازية) فهي تخلو من كل شيء عدا الاكراه الاعمى . ويبدو اليوم كما او أن الحب من جهة والعلاقات الاقتصادية من جهة ثانية قد تركزا في قطبين متناقضين . فكل المودة غير المستخدمة في غرائز الانسان انما تتجمع في قطب لتتذكر العلاقات الاقتصادية في القطب المقابل بعد تحجيمها بتحويلها الى حقوق الزامية ازاء السلع . وهذا الفرز الاستقطابي أو القطبي هو مصدر التأزم الرهيب وسيعطي تبديلات كبيرة للمجتمع البرجوازي . فعلى هذه العلاقات من خلال عملية تهديم وبناء ثوريين أن تتداخل وتلتف حول بعضها لتشكل صيرورة جديدة ، تركيبا جديدا يتجسد في الشيوعية .

وهكذا فان القوى التي تنتج الشيوعية يمكن النظر اليها من ناحيتين . فمن الناحية الكمية تقوم قوى الانتاج التي سبقت علاقات الانتاج البرجوازية البالية بنسف هذه العلاقات التي غدت قيودا عليها . ولكن المعركة انما تخاض من أجل قضية في وعي الناس . فالانسان الفرد يحس بأنه قد سبق هذه العلاقات التي يقوم الواقع بسلخها وابدالها ، كما أن موت ذلك كله ثمين بالنسبة له . ان المطالبة باستعادة كل هذه القيم الزائلة ، مثل كره

الحاضر وحب الجديد ، الى الوعي ، هي القوة المحركة للثورة . فالعاطفة تتفجر حيث تعرضت للقمع بكل عنفوان الانفجار . وكل بنيان المجتمع يتهاوى ، فهذه هي الثورة .

* أو الايض : مجموع العمليات المتصلة ببناء البروتوبلاسمة ودثورها وبخاصة التغيرات الكيميائية (في الخلايا الحية) التي بها تؤمن الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية والتي بها تمثل المواد الجديدة للتعويض عن المندثر منها (المورد) .

صدر في سلسلة العلوم الاجتماعية

ـ دفـاتر علم النفس :

مسألة البيولوجي والاجتماعي في علم النفس

ـ دفـاتر علم الاجتماع :

* الرأسمالية والطوبـاوية الاجتماعية
* أصل الانسان والمجتمع
* الماركسية ـ اللينينية ومناهج العلوم الاجتماعية
* الانتلجنسيا : هذا « اللغز » البرجوازي
* البنى المشاعية والتطور الاجتماعي
(مثال أوقيانيا)

ـ دفـاتر السياسة :

* استراتيجية الغرب الاستعمارية الجديدة
* التوجه الاشتراكي في النظرية والتطبيق

ـ دفـاتر الاقتصاد :

* خصوصية التطور في العـالم الثالث
* أزمـة مفهوم الاقتصاديات

ـ دفـاتر الفلسفة :

* العملية التاريخية والمعرفة الاجتماعية
* علم الوراثة ومستقبل الانسانية

تطلب هذه الدفـاتر وغيرها
من منشورات دار الفارابي

مـن :

- ☐ المكتبة الرئيسية ــ شـارع الاوزاعي ــ منطقة الحرش ــ قرب مستشفى المقـاصد ــ خلف محطة نديـم خير تلفـون : ٣١٧٢٠٥

- ☐ مكتبة التقدم ــ برجـا
- ☐ مكتبة المكتبة ــ قرب البريستول ــ نزلة البيكاديللي .
- ☐ مكتبة جودت فاضل ــ طرابلس .
- ☐ مكتبة الاحمر ــ بعلبك .

ومن جميع المكتبات :

- ☐ مكتبة ميسلون ــ دمشق
- ☐ المركز الثقافي العربي ــ الدار البيضاء (المغرب)
- ☐ الوكالة العربية للتوزيع ــ عمان ــ الاردن .

طبع على مطابع « شركة تكنوبرس الحديثة » ش.م.ل ـ بيروت
أيلـول ـ ١٩٧٩

هذه السلسلة

هذه السلسلة تصدرها دار الفارابي متوخية مراعاة الكثير من المستجدات الطارئة على مجال الاعلام والثقافة والعلاقة بينهما . فمن الطبيعي أن الدراسات الموجزة والمنشورة في دفتر صغير نسبيا تمثل فائدة جمة للكثيرين من الباحثين عن الثقافة والذين ، لسبب او لآخر ، لا يستطيعون متابعة الدراسات الاكاديمية الضخمة حول كافة المواضيع التي تهمهم ، او انهم يفضلون ان يرفقوا دراستهم للمراجع الاساسية ببعض الدراسات القصيرة التي تشكل مقدمة جيدة للتعمق في موضوع ما .

وتشكل هذه الدفاتر محاولة للاطلال على مواضيع متعددة وشيقة ، تدخل كلها في الاطار العام للعلوم الاجتماعية . علما بان اطار هذه العلوم يتسع بقدر ما تزداد قناعة المرء بان العامل الاجتماعي ، بالمعنى الاوسع للكلمة ، هو العامل الحاسم في مجالات اكثر بكثير مما كان يظن ... قبل ماركس .

كما ان الدراسات الواردة في هذه الدفاتر والتي نختارها ونعربها من بين المقالات التي تنشرها مجلة « العلوم الاجتماعية » او غيرها من المجلات التي تعنى بشؤون العلوم الاجتماعية ، والتي تصدر عن اكاديمية العلوم السوفياتية تتخذ في غالبيتها طابع النقاش والمساهمة في الصراع الايديولوجي الجاري على صعيد عالمي . وفي هذا الاطار قد يكون فيها فائدة ليس فقط لطلاب الجامعات والمثقفين عموما ، بل لكافة المناضلين ايضا .



الثمن ٣٥٠ ق.ل.